

الحياة الاجتماعية والفكرية في عراق الإمام أبي حنيفة وأثرها في آرائه

علي القاسمي

١- العراق القديمة:

ليست ثقافة الفرد وتكوينه العقلي وتركيبه النفسي مجرد مجموع ما منحه له أبواه من تربية وتأديب، وما لقنه معلموه من معارف وعلوم، وإنما هي كذلك حصيلة التراكمات الثقافية في بيئته والاسقاطات الحضارية في مجتمعه، وتفاعلات التاريخ والجغرافية في البلاد التي ترعرع فيها، وهذا ما يفسر لنا ظهور مراكز الإشعاع الحضاري في المواقع التي نشأت فيها سابقا أو بالقرب منها، وتعاقب نبوغ الشخصيات الفذة في المجتمع الواحد. فالتاريخ يعيد نفسه ويبقى حيا مؤثرا في ذاكرة الشعوب والجغرافية دائبة الفعل دائمة التشكيل.

والبلاد التي تربى فيها الإمام أبو حنيفة النعمان، العراق، وسميت قديما بلاد ما بين النهرين، أي نهري دجلة والفرات، هي مهد المدنيات الكبرى، السومرية والبابلية والأشورية، ويصفها الباحثون بأنها فردوس علماء الآثار، لسهولة العثور فيها على آثار حضارية قيّمة كالمكتبات والمعابد والقصور والآلات الموسيقية والقطع الفنية، أينما باشروا الحفريات على طول شواطئ الرافدين، فأقدم آثار إنسان التيندرثال وجدت في مغارات شانيدرا في وادي الزاب الأعلى، أحد روافد نهر دجلة، حيث عاش هذا الإنسان في تجمعات سكنية قبل أكثر من مائة ألف عام^(١).

وفي بلاد سومر، جنوبي العراق، عاش أبو البشر الثاني، نوح عليه السلام وفيها بنى فلكه بأمر من الله تعالى للنجاة من الطوفان، الذي وصفته بعد قرون طويلة ملحمة جلجامش السومرية، تلك الملحمة الشعرية الفذة التي غدت مثلا تحتذيها آداب الحضارات الإنسانية الأخرى فنظمت على غرارها الأوديسة والإلياذة.

وفي مدينة أور، عاصمة سومر، ولد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام الذي ينتهي نسبه إلى سام من صلب نوح. وفي سومر وبلاد الرافدين دعا إبراهيم الخليل عليه السلام الناس إلى أن يسلموا وجوههم إلى الله تعالى وحده.

فالتاريخ يبدأ من سومر^(٢) فقبل أكثر من خمسة آلاف عام أبداع السومريون الكتابة المسمارية على ألواح الطين لأول مرة، وهو النظام الكتابي الذي ظل مستعملا في العالم المتحضر خلال ألفي عام. وفي سومر أنشئت أول مدرسة نظامية في تاريخ البشرية، واخترت عجلة العربدة ودولاب الفخار والمحراث والسفينة الشراعية ووضع النظام العددي العشري وقسمت الدائرة إلى ٣٦٠ درجة وغيرها من المخترعات. ويتفق الباحثون أن أعظم اختراعين مهذا السبيل أمام تقدم البشرية هما الكتابة والعجلة، وكلاهما من نتاج الفكر السومري.

وفي الألف الثاني قبل الميلاد، برزت في بلاد الرافدين الحضارة البابلية وعاصمتها مدينة بابل في وسط البلاد فورثت الفكر السومري وأضافت إليه ما أبدعه فلاسفتها وعلمائها من فلسفة ورياضيات وفلك وعلوم أخرى كانت الأساس في نهضة الفلسفة اليونانية. وحوالي عام ١٧٥٠ ق.م. وحد الملك البابلي حمورابي شمال البلاد (آشور) وجنوبها (سومر) في مملكة واحدة، وجمع قوانين المملكة في مدونة واحدة ونقشها على مسلة شاهقة نصبت في مدخل مدينة بابل ليعرف كل مواطن حقوقه وواجباته، وترجم قوانينه إلى لغات الشعوب التابعة للإمبراطورية، فكان في بابل أول جهاز للترجمة، ووضعت أولى المعاجم الثنائية للغة في تاريخ البشرية. وفي بابل شيد الملك نبوخذ نصر حدائق بابل المعلقة، إحدى عجائب الدنيا السبع.

وخلال النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد وحد الآشوريون الذين انطلقوا من شمالي العراق بلاد الشام ومصر تحت قيادتهم، ولم يكن ذلك بفضل قوتهم العسكرية فحسب وإنما لتمكنهم من المعارف والعلوم كذلك، فقد كشفت الحفريات الأثرية عن أول مكتبة عرفها التاريخ في عاصمتهم مدينة نينوى شمالي العراق.

ونظرا لموقع العراق الاستراتيجي، فقد كان فضاؤه مسرحا للصراع بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، فقد احتل قيروش الثاني بابل عام ٥٣٨ ق.م. وفي تلك الحقبة ولد في بابل المفكر الروحي ماني الذي انتشرت ديانته في أنحاء الإمبراطورية الفارسية. ثم احتلها الإسكندر الكبير عام ٣٣٤ ق.م. ومات فيها عام ٣٢٤ ق.م، ثم وصلها الرومان بعد ذلك وفي عام ٢٤٩ ق.م. تخلوا عنها للبارثيين وبعدهم الساسانيين الذي اتخذوا من مدينة قسطنطين العرقية عاصمة لإمبراطوريتهم. وأخيرا حرر العرب المسلمون العراق بعد معركة القادسية عام ٦٣٥ م. ولقد تركت تلك الحضارات آثارا من

خصائصها الفكرية وملامحها الثقافية في بلاد ما بين النهرين، استطاع أهل البلاد أن يفيدوا منها وضموا أفضل خصالها إلى ثقافتهم العريقة...

إن العمق التاريخي الذي يتمتع به العراق، والوجه الغني الحضاري الذي يمتاز به، والتعدد الثقافي الذي يطبعه، منذ آلاف السنين، عوامل أهلته للاضطلاع بدوره العلمي المتميز في الحضارة الإسلامية، حيث ظهرت فيه الفرق الكلامية والفلسفية، والمدارس النحوية، ومعظم المذاهب الفقهية، وكثير من الأحزاب السياسية، وجمهرة من أعلام الفكر الإسلامي في شتى العلوم والآداب والفنون.

٢- الكوفة مدينة الإمام أبي حنيفة:

كانت المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل. وبأمر من الخليفة عمر بن الخطاب اختط المسلمون مدينة البصرة بين سنتي ١٤ و ١٧هـ/٦٣٨. وتقع البصرة في أرض سومر القديمة ولا تبعد عن موقع مدينة أور السومرية بأكثر من خمسين ميلاً. وإذا كان الهدف الأساسي من إنشاء مدينة البصرة هو اتخاذها موقعاً متقدماً في حركة الفتوحات الإسلامية، فإنها سرعان ما أصبحت مركزاً من مراكز الإشعاع الفكري الإسلامي، فقد استوطنها كثيرٌ من الصحابة والمحدثون والفقهاء والتابعون^(٣). وهذا ما حصل لمدينة الكوفة كذلك، فقد أسسها سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية سنة ٦٣٨م لتكون مقراً لجيشه، ولكن الكوفة التي لا تبعد عن الحيرة، المركز الحضاري الكبير في العصر الجاهلي، إلا بضعة أميال ولا يفصلها عن بابل إلا ثلاثون ميلاً، أبت إلا أن تحمل إرثها الثقافي، وسرعان ما غدت حاضرة عمرانية عامرة تزخر بالعلم والعلماء وكثير سكانها من الموالي ومن أنحاء الدولة الإسلامية الآخذة في الاتساع. وبعد أقل من عشرين عاماً من تأسيسها نالت شرف اختيارها عاصمة للدولة الإسلامية من لدن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.

واشتدت المنافسة العلمية بين الكوفة والبصرة، وقد اشتهر لدى العام والخاص وجود مدرستين نحويتين في التراث اللساني العربي هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ولكن الأسس النظرية والمفهومية التي قامت عليها هاتان المدرستان تظهران في مجالات علمية أخرى كما سنرى.

وعلى الرغم من أن الدولة الأموية التي قامت بعد اغتيال الإمام علي بن أبي طالب عام ٦٤٠هـ/٦٦م، قد اتخذت من دمشق عاصمة لها. فقد بقيت مراكز الإشعاع العلمي الإسلامية خلال العصر الأموي كله في المدينة والبصرة والكوفة، على الرغم من إهمال الخلفاء الأمويين لهذه المدن الثلاث، بل على الرغم من سياسة الشدة والقمع التي كان ولاتهم يمارسونها فيها بوضعها مراكز للمعارضة السياسية.

وأثناء حياة الإمام أبي حنيفة (٨٠-١٥٠هـ/٦٩٩-٧٦٧م) والسنوات القليلة التي سبقت ميلاده وتلك التي أعقبت وفاته، كانت الكوفة تعيش عصرها العلمي الذهبي في حين كانت الاضطرابات السياسية تجتاحها من كل حذب وصوب. وعلى الرغم من أن نمو الحركة الفكرية يرتبط عموماً بالاستقرار السياسي ورفاه الاجتماعي، فإن التاريخ يزودنا بأمثلة كثيرة تُخرق فيها هذه القاعدة، فنجد أن الحركة الفكرية تنتعش في بلد يعم فيه الاضطراب السياسي وتسوده خشونة العيش وصعوبتها، والكوفة كانت واحداً من هذه الأمثلة.

فمنذ استشهاد الإمام الحسين بن علي في ١٠ محرم ٦١هـ/٦٨٠م على يد الجيش الأموي المنطلق من الكوفة، والكوفة لم يهدأ لها بال، فبعد ثلاث سنوات فقط ثار المختار الثقفي على الأمويين تحت شعار "يا لثارات الحسين"، واتخذ الكوفة قاعدة له، وتتبع جميع الذين شاركوا في جريمة قتل الحسين بن علي، وقتلهم واحداً واحداً، شمر بن ذي الجوشن الذي قتل الحسين بيده، وخولي بن يزيد الذي سار برأسه إلى الكوفة، وعمر بن سعد بن أبي وقاص الذي قاد الجيش الذي حاربه، وعبيد الله بن زياد الذي جهز الجيش لقتاله. غير أن المختار الثقفي نفسه يُقتل في الكوفة على يد مصعب بن الزبير الذي بعثه لقتاله أخوه عبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة في مكة المكرمة بعد وفاة يزيد بن معاوية في دمشق^(٤) ثم تدور دوائر الأمويين على مصعب بن الزبير فيقتل قرب الكوفة عام ٧١هـ/٦٩٠م.

كل هذه الأحداث تقع في الكوفة وأنحائها قبل سنوات قليلة من مولد الإمام أبي حنيفة ولكنها تبقى حيةً في ذاكرة الكوفيين كما هي حيةً إلى يومنا هذا في ذاكرة العراق كله حيث تقام المجالس الدينية كل عام في محرّم تخليداً لذكرى استشهاد الإمام الحسين. ولعل ما كان يدفع أهل الكوفة إلى الثورات المتتابة على الأمويين هو استئثار الحكام الأمويين بأموال المسلمين وتوزيعها دون حق على الأقرباء والمؤيدين لهم، وعدم مساواتهم في المعاملة بين العرب والموالي، كما تقضى بذلك الشريعة الإسلامية الفراء. وبعبارة أخرى، إن الظلم والشدة يؤديان إلى زعزعة السلم الاجتماعي ويستدعيان كفاح الإنسان الحر لإرساء العدل وإحقاق الحق. وهذا ما حدا بالإمام زيد بن علي بن الحسين (٨٠-١٢٢هـ/٦٩٩-٧٤٠) إلى الثورة في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وفي حياة الإمام أبي حنيفة من أجل جهاد الظالمين، والدفاع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وتقسيم الفياء بين أهله بالسواء، ورد المظالم. وقد قتل الإمام زيد وصلب على جذع نخلة في كناسة الكوفة عام ١٢٢هـ/٧٤٠م^(٥).

وفي هذا الجو السياسي والاجتماعي المضطرب، كانت الحركة الفكرية نامية متصاعدة. وإن كانت الكوفة مسرحاً للثائرين على الحكم الأموي، فإنها كانت في الوقت ذاته تزخر بحلقات الدرس والعلم، وتمتلىء بالنحويين والفقهاء والقراء والشعراء. وإذا كانت البصرة قد سبقت الكوفة في الدراسات النحوية بفضل الشاعر اللغوي أبو الأسود الدؤلي^(٦) (١ق. هـ ٦٩هـ/٦٠٥-٦٨٦) الذي وضع علم النحو بالبصرة بتوجيه من الإمام علي بن أبي طالب، وأخذ عنه جماعة شكلوا نواة مدرسة البصرة النحوية التي وضع أساسها ابن أبي إسحاق الحضري وأبو عمرو بن العلاء ووضع الخليل بن أحمد (١٠٠-١٧٠هـ/٧١٦-٧٨٦م) نظرياتها، وقام تلميذه سيبويه بتدوين نحوها في "كتابه"، فإن الكوفة سرعان ما لحقت بالبصرة في هذا المضمار. فتأسست مدرسة الكوفة على يد أبي جعفر الرؤاسي (ت ٨٠٣م) وأبي مسلم معاذ الهراء (ت ١٦٧هـ/٨٠٣م) ونظرها علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩هـ/٨٠٥م)، وكتب قواعدها أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (١٤٤-٢٠٧هـ/٧١٦-٨٢٢م). ومن حيث المنهجية، يكمن الفرق بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة أن البصريين يستخلصون القاعدة من الأمثلة الكثيرة والمتداولة على ألسنة العرب، في حين كان الكوفيون يتوسعون في القياس على القليل^(٧) وسنرى فيما بعد أن الفرق ذو علاقة بفقهاء الإمام أبي حنيفة. فمن المعروف أن الفقهاء تأثروا بمنهاج النحويين، وأن الأصوليين تأثروا بمنهاج الدالين، وأن مدرسة الكوفة لم تكن مقتصرة على النحو ومسائله وإنما نجد منهجيتها منعكسة في المجالات العلمية الأخرى.

وفي الشعر لا نجد في البصرة في تلك الفترة من الشعراء المعروفين سوى أبي الأسود الدؤلي في حين نجد أن الكوفة، وريثة الحيرة، تنجب في آن واحد شاعر الغزل والمجون والبنة الحباب (ت ٧٨٦م) أستاذ أبي نواس (٧٥٧-٦١٤هـ) شاعر الخمرة والمجون، وشاعر الزهد أبا العتاهية (٧٤٨-٦٢٥م).

وإذا افتخرت البصرة بأن اثنين من أصحاب قراءات القرآن العشرة كانوا من علمائها، فإن الكوفة قد أنجبت أربعة منهم: عاصم بن أبي النجود الكوفي (ت ١٢٧هـ/٧٩٥م) وحمزة بن حبيب الزيات الكوفي (٨٠-١٥٦هـ/٧٠٠-٧٧٣م) وعلي الكسائي الكوفي (ت ١٨٩هـ/٨٠٥م) وخلف السباز (١٥٠-٢٢٩هـ/٧٦٧-٨٤٤م)، ويعد الثلاثة الأوائل منهم من بين القراء السبعة ومن المعاصرين للإمام أبي حنيفة.

وكانت الكوفة أكبر عش للفقهاء في عهد الإمام أبي حنيفة، فمنهم من ولد فيها، ومنهم من هاجر إليها واستوطنها. ويكفي أن نذكر من بين فقهاء الكوفة اسم القاضي شريح الذي ولي القضاء فيها للخلفاء الراشدين عمر، وعثمان، وعلي الذي قال له يوماً "أنت أفضى العرب" فصار يضرب به المثل

ويقال "أقضي من شريح" ثم تولى القضاء بعده فقيه شهير آخر هو عامر بن شراحيل الشعبي (١٩-١٠٣هـ/ ٦٤٠-٧٢١م) الذي قال فيه أبو مخلد "ما رأيت أفقه من الشعبي" وهو الذي رغب الإمام أبا حنيفة في التفرغ لطلب العلم. ومن فقهاء الكوفة آنذاك محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى (٧٤-١٤٨هـ/ ٦٩٣-٧٦٥م) وحماد بن أبي سليمان شيخ الإمام أبي حنيفة، وغيرهم. لقد كانت الكوفة تعجُّ بالعلماء والفقهاء حتى قال الإمام أبو حنيفة: "لقد كنت في معدن العلم والفقهاء..." (٨).

وإذا كانت هذه اللمحة الخاطفة عن أبرز رجال الفكر في الكوفة في عصر الإمام أبي حنيفة تعطينا فكرة مبسطة عن الحركة الفكرية وازدهارها في تلك المدينة، فإنه يجب أن نذكر حقيقة هامة مفادها أن عصر الإمام أبي حنيفة كان عصر نشاط علمي كبير في جميع مراكز الثقافة الإسلامية لا في الكوفة وحدها. ومن الملفت للنظر أن العقد الذي ولد فيه الإمام أبو حنيفة شهد ولادة خمسة من كبار الفقهاء أصحاب المذاهب الإسلامية التي ما زالت مذهبهم حية إلى اليوم هم: الإمام جعفر الصادق الذي ولد عام ٨٠هـ، والإمام زيد بن علي الذي ولد عام ٨٠هـ كذلك، والإمام أبو حنيفة الذي ولد عام ٨٠هـ كذلك، والإمام عبد الرحمن الأوزاعي الذي ولد عام ٨٨هـ، أما الإمام مالك بن أنس فقد ولد بعد ذلك بقليل عام ٩٣هـ.

وقد كان هؤلاء الفقهاء العظام على اتصال علمي وثيق، ومعروف أن الإمامين أبا حنيفة ومالكاً أخذوا عن الإمام جعفر الصادق (٩) الذي درس الفقه على أبيه الإمام محمد الباقر مؤسس أول مدرسة فقهية نظامية في تاريخ التربية الإسلامية، والذي درس بدوره على أبيه الإمام علي بن الحسين زين العابدين ثاني من انتظمت على يديه حلقات الدرس الفقهي بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم -. لقد عاش الإمام أبو حنيفة في عصر ازدهرت فيه العلوم الإسلامية وبدأ فيه التدوين الفقهي. وأسهم فيه الإمام أبو حنيفة إسهاماً فاعلاً (١٠).

٣- الأحزاب السياسية في عصر الإمام أبي حنيفة:

بعد مقتل الخليفة عثمان وبيعة الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - خليفة للمسلمين زعم بعض الصحابة ومنهم الزبير بن العوام، وطلحة، ومعاوية بن أبي سفيان - وأبي الشام - أن الإمام علي لم يلاحق قتلة الخليفة ويعاقبهم، وهو زعم يخفي وراءه تطلع بعض هؤلاء القادة إلى الخلافة، وهذا ما يُلْمَح له باللغة العربية بالمثل "قميص عثمان". وهكذا خرج طلحة والزبير وعائشة وعلي الخليفة في البصرة ومعاوية في الشام. وبعد أن انسحب الزبير من معركة الجمل واغتيل بعد ذلك، وبعد أن قتل طلحة في معركة الجمل عام ٣٦هـ/ ٦٥٦م، وفشلت حركتهم، توجه الخليفة إلى قتال

معاوية ووقعت معركة صفين التي انتهت إلى قبول المتحاربين بالتحكيم الذي خدع فيه الداهية عمرو بن العاص ممثل فريق معاوية، أبا موسى الأشعري ممثل فريق الخليفة، إذ اتفق معه سرا على خلع علي ومعاوية لوضع حد للقتال، فلما وقفا أمام الجمع ليعلنا اتفاقهما، خلع أبو موسى الأشعري عليا ومعاوية، أما عمرو بن العاص فإنه خلع عليا وثبت معاوية، مما أدى إلى بلبلة الآراء وتعميق الخلاف وزيادة الفرقة، إذ خرج من جيش الخليفة رجال على الإمام علي لقبوله التحكيم ولو مكرهاً فسموا بالخوارج.

وهكذا فبعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب عام ٤٠هـ/٦٦١م وتنازل ابنه الإمام الحسن عن الخلافة لمعاوية حقنا لدماء المسلمين، نجد أن الساحة السياسية الإسلامية تتوزع على أحزاب رئيسية أربعة:

١- الحزب الأموي: الذي يضم أنصار الأمويين الذين حولوا الخلافة إلى نظام وراثي مقره دمشق واستمرت دولتهم من ٤٠هـ/٦٦١م إلى عام ١٣٢هـ/٧٥٠م حيث انتهت بمقتل آخر خلفائهم مروان بن محمد ثم انتقلت دولتهم إلى الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨هـ/١٧٢م واستمرت حتى عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م.

٢- الحزب الزبيري: وهم أنصار الزبير بن العوام الذين ناصروه في معركة الجمل، ثم ناصروا ابنه عبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة في الحجاز عام ٦٤هـ بعد وفاة يزيد بن معاوية.

٣- الخوارج: الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب بعد معركة صفين كما ذكرنا، وقد طوروا فيما بعد نظريتهم السياسية فأروا في الخلافة شأنًا من شؤون المسلمين يليها من يقع اختيارهم عليه، وتوالت ثوراتهم على الأمويين.

٤- الشيعة: وهم في الأصل أنصار الإمام علي بن أبي طالب الذين عدوه أحق الناس في الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ورأوا أن الخلافة أمر إلهي وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - نص على خلافة الإمام علي بعده. وإن رأيت الشيعة بعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب - وجوب بقاء الخلافة في آل البيت فإنها تفرقت إلى فرق كثيرة^(١).

٥- الحزب العباسي: ويضم أنصار سلالة عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الذين كانوا يدعون الناس أثناء حكم الأمويين إلى آل البيت ويعملون سراً على أن تكون الخلافة فيهم، وقد حققوا غايتهم عندما قضاوا على الأمويين وأنشأوا الدولة العباسية عام ١٣٢هـ/٧٥٠م أي في حياة الإمام أبي حنيفة، واتخذوا الأنبار ثم الكوفة عاصمة لهم أول الأمر حتى بنى المنصور بغداد عام ٧٦٢م واتخذها عاصمة للدولة العباسية.

٤- ميول الإمام أبي حنيفة السياسية:

يتفق جميع الذين تناولوا مواقف الإمام أبي حنيفة السياسية^(١٢) على أنه كان شيعيا وفيه محبة لذرية الإمام علي وفاطمة الزهراء، ويستدلون على ذلك بما يلي:

(١) رفض الإمام أبو حنيفة التعاون مع مناوئي العلويين من أمويين وعباسيين، فعندما طلب منه يزيد بن هبيرة عامل الأمويين على العراق (١٢٧-١٣٢هـ) أن يكون في يده خاتم الدولة، يختم به كل أمر إداري هام، رفض ذلك، فسجنه وأمر بضربه بالسياط، وقيل إنه غادر الكوفة بعد ذلك إلى مكة المكرمة عام ١٣٠هـ، ولم يعد إليها إلا بعد أن زال حكم الأمويين، وعندما طلب إليه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أن يتولى القضاء، اعتذر بلطف وعندما ألح الخليفة عليه رفض بعنف، فضربه بالسياط وسجنوه، غير أننا نحسب بأن الإمام أبا حنيفة لم يرفض تولي القضاء للأمويين والعباسيين بسبب معارضته السياسية لهما وإنما رفضه ترفعا وتعففا وتحوطا، فهناك من كبار الفقهاء ممن لم تكن لهم مواقف سياسية رفضوا القضاء لنفس أسباب الإمام أبي حنيفة، كما أننا نحسب كذلك أن الوالي الأموي والخليفة العباسي ضربا الإمام أبا حنيفة وسجناه لا لأنه رفض تولي القضاء بل عقابا له على تشييعه. وهذا ما حدث للإمام مالك، الذي سجنه وضربه الخليفة العباسي.

(٢) كان الإمام أبو حنيفة يصرح أن أمير المؤمنين علياً كان على حق في كل خلاف سياسي خاضه وكان دائما يقول "ما قاتل أحد علياً، إلا وعليّ أولى بالحق منه"^(١٣).

(٣) لقد ناصر الإمام أبو حنيفة الإمام زيد بن علي في خروجه على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وحث على الجهاد معه، كما أيد خروج الإمام إبراهيم بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى على الخليفة المنصور وحض الناس على نصرته، وكانت عيناه تدمعان عندما يذكر عنده محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى الذي قتله العباسيون^(١٤).

(٤) لقد سعى الإمام أبو حنيفة إلى الاتصال العلمي بأئمة آل البيت والتلمذ عليهم والأخذ عنهم، وقد عدّ من شيوخه عبد الله الكامل بن الحسن المثنى، والإمام محمد الباقر وولده الإمام جعفر الصادق وروى عنهما^(١٥).

وبصدد تشييع الإمام أبي حنيفة، ينبغي الإشارة إلى نقطتين:

أ- إنه كان من شيعة آل البيت ولم يعرف عنه الانتماء إلى إحدى الفرق الشيعية الموجودة في زمانه مثل الإمامية أو الكيسانية أو الزيدية.

ب- إن تشييعه للإمام علي وآل البيت كان بلا تعصب ولا مغالاة بل كان تشييع "من لا يسب السلف، ويؤمن بالقدر، ولا يكفر أحدا بذنب" كما قال هو عن نفسه، فهو بذلك يشبه علماء

الشيعة وفقهائهم الذين يترحمون على الشيخين أبا بكر وعمر، لعرفتهم بمنزلتهما وبلائهما في الإسلام وقرابتهما من الرسول - صلى الله عليه وسلم - والإمام علي، فالخليفة أبو بكر هو جد الإمام جعفر الصادق لأمه، والخليفة عمر بن الخطاب هو زوج أم كلثوم ابنة الإمام علي وفاطمة الزهراء.

٥- الفرق الكلامية في عصر الإمام أبي حنيفة:

إذا كانت الفرق أو الأحزاب السياسية التي ذكرنا آنفاً تبحث في الخلافة ومن ينبغي أن يليها والشروط الواجب توفرها فيه، فإن الفرق الكلامية التي كانت سائدة في عصر الإمام أبي حنيفة تبحث في صفة الله والرسول، ومسائل القضاء والقدر، والجبر والاختيار، ويوم الحساب والعقاب والثواب، والتكفير والتضليل والإرجاء، وهي المسائل التي يشتمل عليها علم الكلام.

ويتفق الباحثون أن علم الكلام قد نما نتيجة لمجموع مناظرات المعتزلة - أكبر الفرق الكلامية - مع خصومهم. ومعروف أن المعتزلة بدأت باعتزال واصل بن عطاء (ت ١٣١هـ / ٧٤٦م) حلقة درس الحسن البصري (٢١-١١٠هـ / ٦٤٢-٧٢٨م)، أحد كبار التابعين الذي كان يعقد مجلسه العلمي في البصرة، وكان واصل بن عطاء أحد الذين يحضرون مجلس الحسن البصري، ولكنه اختلف معه حول مسألة مرتكب الكبيرة، وقال واصل: أنا أقول إن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن بإطلاق بل هو في منزلة بين المنزلتين، ثم اعتزل المجلس مع جماعة أيدته، فأطلق عليهم اسم المعتزلة^(١٦) والخصائص المميّزة لهذه المدرسة الكلامية هي القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد عُرف عن المعتزلة ولَعُهُم في الإبداع ومجافاة التقليد والاتباع، ولهذا كثرت فرق المعتزلة، وتسمى هذه الفرق، بأسماء رؤسائها مثل الواصلية والهدلية والنظامية والحائطية والبشرية، إلخ. كما أن المعتزلة كانوا يطلعون على علوم عصرهم ويستخدمون الفصاحة والبيان للتعبير عن آرائهم وكانوا يعتمدون على العقل في إثبات عقائدهم، ويستمدون العون من القرآن الكريم ولا يحتجّون بالحديث الشريف لقلّة معرفتهم به وما كانوا يأخذون به العقائد^(١٧).

ولا يعني الحديث عن فرق سياسية وفرق كلامية، أن الفرق السياسية لا تخوض في المسائل الفقهية أو الكلامية فالفقه والسياسية يتداخلان في الإسلام كتداخل الدين والدنيا. ومن الأمثلة على ذلك فرقة الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي بعد معركة صفين، والمرجئة الذين أرجؤوا الحكم

على الاختلاف بين الخليفة عثمان والثائرين عليه إلى الله. وكذلك فعلوا بالنسبة للقتال بين معاوية والإمام علي فالخوارج والمرجئة كانوا من الفرق السياسية ثم خاضوا في المسائل الكلامية فقال الخوارج إن مرتكب الكبيرة كافر وأرجأ المرجئة الحكم عليه وفوضوا أمره إلى الله.

ومن الفرق الكلامية التي كانت معروفة في زمن الإمام أبي حنيفة الجبرية الذين ينسبون أفعال الإنسان إلى الله، فالإنسان مجرد من الإرادة والاختيار لا يخلق أفعاله وإنما هو مجبور في كل ما يفعل. وقد سميت الجبرية بالجهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ/٧٤٥م)، لأنه كان أكبر دعاة هذه الفرقة الكلامية.

٦- آراء الإمام أبي حنيفة الكلامية:

تشير الروايات المختلفة التي تناولت سيرة الإمام أبي حنيفة إلى أنه بدأ حياته العلمية بدراسة علم الكلام وأنه اشترك في جدال أهل الفرق المختلفة في مسائله، ولكنه عدل بعد ذلك إلى الفقه، وحاول أن يتجنب الخوض في خلاف أهل الكلام. والآراء القليلة التي عبّر عنها في مسائل علم الكلام تنم عن اعتدال وفكر، ولا شك أن ذلك ناتج عن عدم انتمائه إلى أي من الفرق الكلامية.

فقد اشتهر عن الإمام أبي حنيفة أنه عرف الإيمان بأنه "الإقرار والتصديق"، والإسلام بأنه "التسليم والانقياد لأوامر الله تعالى"، وهو تفريق يكاد يكون لغويا محضاً. وتنقل لنا بعض كتب التراث مناظرة وقعت بين الإمام أبي حنيفة وجهم بن صفوان رأس الجبرية، تبين أنه كان يرى أنه لا يكفي لثبوت الإيمان الإقرار في القلب فقط وإنما لابد من التصريح به قولاً بدليل قوله تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾^(١٨) فالإيمان في رأيه اعتقاد قلبي جازم وإقرار قولي ظاهر ولا يعدّ الإمام أبو حنيفة العمل جزءاً من الإيمان، وفي ذلك يخالف المعتزلة والخوارج الذين لا يعدون من لا يعمل بالأحكام الشرعية مؤمناً.

أما رأي الإمام أبي حنيفة في مرتكب الذنوب أو الكبائر بشكل عام، فهو عدم تكفيره. وهذا الرأي ينسجم منطقياً مع تعريفه السابق للإيمان والإسلام، على الرغم من أنه اتهم بأنه يذهب فيه مذهب الإرجاء.

ولقد تجنّب الإمام أبو حنيفة الخوض في الجبر والقدر إلا بقدر محدود يتلخّص في أنه يؤمن بالقدر خيره وشره، وأن حسنات الإنسان وسيئاته باختياره وإرادته، وهو محاسب عليها وليس الله بظلام العبيد.

كما كان الإمام أبو حنيفة ينادى بنفسه وبأصحابه عن الدخول في أية مناظرة أو مجادلة حول خلق القرآن ويكتفون بالقول: إن القرآن كلام الله عز وجل، ولا أكثر من ذلك.

٧- المدارس الفقهية في عهد الإمام أبي حنيفة:

كان الصحابة يعودون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في أمور دنياهم وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم كان الإجماع على أن الأحكام تستقى من مصدري الشريعة: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فإن لم يوجد نص ينطبق على الواقعة أو الحادثة من الوقائع اجتهدوا.

وقد تمخّص عن ذلك كله فريقان من الفقهاء: فريق اشتهر بالرواية وآخر اشتهر بالرأي وكانت المدينة المنورة موطن أصحاب الرواية لقربها من مهبط الوحي وكثرة الصحابة الذين يحفظون أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ويروون سنته فيها، ولأنها البيئة التي عاش فيها الرسول عليه الصلاة والسلام. وكانت الكوفة موطن أهل الرأي لبعدها عن المدينة المنورة، وقلة الصحابة فيها واختلاف بيئتها الاجتماعية عن بيئة المدينة المنورة، لكثرة الأجناس التي قطنتها وتنوع الخلفيات الثقافية لأبنائها.

وهكذا نجد في عصر الإمام أبي حنيفة مدرستين فكريتين في الفقه: إحداهما مدرسة الرواية في المدينة المنورة ورأسها الإمام مالك بن أنس، والأخرى مدرسة الرأي في الكوفة وإمامها أبو حنيفة النعمان. وكلتا المدرستين تأخذان بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، غير أن فقهاء مدرسة الرأي كانوا يفتون بآرائهم فيما لم يصح لديهم حديث فيه، وكانوا يرفضون الأخذ بالأحاديث الضعيفة، في حين كان فقهاء الرواية يقبلون الأخذ بها إذا لم يثبت أنها موضوعة، فهم يأخذون بالحديث المنقطع (الذي سقط منه راوٍ في موضع أو أكثر) والحديث المرسل (الذي سقط منه الصحابي) والحديث الموقوف (الذي جاء عن الصحابي من قوله أو فعله أو تقريره)، ويأخذون بعمل أهل المدينة ولا يلجأون إلى الفتوى برأيهم إلا إذا لم يجدوا شيئاً من ذلك^(١٩).

ونجد هذا الفرق بين المدرستين الفكريتين في ما يتعلق بتفسير القرآن الكريم، فالمدرسة الأولى تتبنى ما يسمى "التفسير بالمأثور" أي ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة، في حين تميل المدرسة الثانية إلى "التفسير بالرأي" الذي كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل^(٢٠).

٨- الاستنتاجات:

نستنتج مما تقدم أن الإمام أبي حنيفة كان يميل في فتاويه الفقهية إلى مدرسة الرأي والقياس. وإن هذا الميل كان وليد العوامل الاجتماعية والفكرية في العراق - وخاصة مدينة الكوفة - التي ولد ونشأ فيها ويمكن تلخيص هذه العوامل فيما يلي:

١- إن بيئة العراق - وهو موطن المدنيات القديمة الكبرى وورث ما أنتجته من فكر وعلم وفن، وموطن أقوام متعددي الأجناس مختلفي الثقافات، متبايني الديانات - تشجع على المناظرة والمجادلة وتبادل النظر، وإبداء الرأي وإبداع الفكر.

٢- بينما كان مجتمع المدينة المنورة متجانسا عرفيا وثقافيا فإن مجتمع الكوفة في عصر الإمام أبي حنيفة كان خليطا من العرب، ومن الموالى الذين وفدوا إليها من مختلف أقطار الدولة الإسلامية الآخذة في التوسع، مما أدى إلى وقوع أحداث ووقائع لا متناهية لا يكفي لإيجاد أحكام لها الاقتصار على النصوص التشريعية المتناهية ولا بد من الاجتهاد بالرأي قياسا على تلك النصوص.

٣- لقد كان العراق بشكل عام والكوفة بشكل خاص في عهد الإمام أبي حنيفة مسرحا لأحزاب سياسية متقاتلة من أموية، وشيعية وخوارج، وعباسية، وغيرها، ولفرق كلامية متصارعة من معتزلة وجبرية ومرجئة وغيرها، كما ولم يتردد بعض المتعصبين من زوى الأهواء من تلك الأحزاب والفرق عن وضع الأحاديث التي تسند مقولاتهم وتدعم مواقفهم، مما أدى بفقهاء مدرسة الرأي إلى التشدد في قبول الأحاديث، والاعتماد أكثر على الرأي والقياس.

٤- كان الفقهاء من أهل الرأي في الكوفة منسجمين مع الجو الفكري في مدينتهم، فمدرسة الرأي لم تقتصر على الفقه فحسب بل شملت المجالات العلمية الأخرى كالتفسير، حيث كانوا يميلون إلى التفسير بالرأي أكثر من التفسير بالمأثور، كما كانوا تابعين لمدرسة الكوفة اللغوية حيث أكثر أهلها من القياس لاستنباط القواعد النحوية، بدلا من استقراء الأمثلة الكثيرة.

وهكذا، فأبو حنيفة لم يبتدع مدرسة أهل الرأي الفقهية بل تتلمذ على شيوخ منها، كما أن مدرسة الرأي لا تقتصر على الفقه في الكوفة بل عمت المجالات العلمية الأخرى.

هوامش

1. Pilippe Rondot, Pirak (Pans: Press Universitaires de France, 1979).
que sais-je? No. 1771, pp. 17-20.
- ٢- "التاريخ يبدأ من سومر" عنوان الطبعة الثانية/ كتاب صموئيل نوح كريم، نشرة بالإنجليزية عام ١٩٥٦م تحت عنوان "من ألواح سومر" وترجمه إلى العربية الأستاذ طه باقر.
- ٣- نعمان بن محمد بن العراق، كتاب معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر، تحقيق محمد حميد الله (إسلام آباد: مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٣) وياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار إحياء التراث، طبعة ١٩٧٩) ص ٤٣٠-٤٣٦.
- ٤- خير الدين الزركلي، الأعلام، (بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٦م) ج ٧، ص ١٩٢.
- ٥- أحمد محمود صبحي، الزيدية، (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٤م) ص ٦٥-٧١.
- ٦- محمد ولد أباه، تاريخ النحو العربي، (الرباط: الإيسيسكو، ١٩٩٦م).
- ٧- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٨م)، ص ١٠٠.
- ٨- تاريخ بغداد، ٣/٣٣٣.
- ٩- الإمام محمد أبو زهرة، أبو حنيفة حياته وعصره وآراؤه وفقهه (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٧م، ص ١٤٦.
- ١٠- يرى الدكتور مصطفى الشكعة في دراسة له نشرها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر عام ١٩٩٦م أن للإمام أبي حنيفة عدة مؤلفات منها كتاب (الرهن) الذي نسخه سفيان الثوري دون علم من أبي حنيفة واستعان به في وضع كتابه الذي أطلق عليه اسم الجامع، ومنها كتاب الفقه الأكبر وكتاب رسالة العالم والمتعلم وكتاب رسالة إلى عثمان البتي وكتاب الرد على القدرية وكتاب العلم شرقا وغربا وبعدا وقربا، كما أن كتاب الآثار الذي يحمل اسم أبي يوسف هو في الحقيقة كتاب أبي حنيفة. (مراجعة محمد بيومي للدراسة في جريدة (الشرق الأوسط) عدد ٦٤٣٧ بتاريخ ١٣-٧-١٩٩٦م.
- ١١- انظر الملل والنحل، للشهرستاني.
- ١٢- انظر علي سبيل المثال الإمام محمد أبو زهرة في كتابه أبو حنيفة وكذلك الشيخ كامل محمد محمد عويضة في كتابه الإمام أبو حنيفة (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م).
- ١٣- المناقب للمكي، ٨٤/٢، كما نقله الإمام أبو زهرة في كتاب أبو حنيفة.
- ١٤- المصدر السابق.

- ١٥- الآثار، ص ١٢٤، كما ذكره الشيخ كامل محمد محمد عويضة في كتابه الإمام أبو حنيفة، ص ٢٢.
- ١٦- عبد المجيد الصغير، "الكلامية" في الموسوعة الفلسفة العربية، (بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٨م) ج ٢، ص ١١١١-١١٣١.
- ١٧- الإمام محمد أبو زهرة، أبو حنيفة، ص ١٢٦-١٣٨.
- ١٨- المناقب للمكي، ج ٢، ص ١٤٥-١٤٨، كما نقلها الإمام محمد أبو زهرة في كتابه أبو حنيفة، ص ١٥٠-١٥٣.
- ١٩- ابن القيم، أعلام الموقعين، ٢/١.
- ٢٠- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٥م)، ٣٢٥-٣٢٦.